

المحاضرة السابعة موسيقى الرباعيات

أولاً: تعريفها:

الرباعية هي أحد فنون الشعر، وتسمى أيضاً الدوبيت وهي لفظة مكونة من كلمتين - إحداهما «دو» بمعنى اثنين، والأخرى «بيت» بمعنى بيت الشعر. وقد جاء في معجم كشاف اصطلاحات الفنون: «هو بيتان من الشعر متفقان في الوزن والقافية، وليس من شرطه موافقة المصراع الثالث»¹

ثانياً: تاريخ الرباعيات:

اختلف بعض أهل الرأي في أصل الرباعيات، فانقسموا إلى فريقين: **الفريق الأول:** يرى أصحابه أنّ الرباعيات قديمة في الشعر العربي، ولكن الشعراء لم يخصصوها بوزن معين، بل نظموها في أغلب أوزان الشعر، ويجعل الأصفهاني أقدم من نظم في الرباعيات علس ذو جدن الحميري، فمن رباعياته قوله: ما بال أهلك يا رباب خزرا كأنهم غضاب إن زرت أهلك أوعدوا وتهرّ دونهم كلاب

كما يشير أصحاب هذا الرأي إلى أنّ شعراء الفرس قد أخذوا الفنّ من الشعر العربي، لكنهم تخلوا فيه عن الأوزان العربية، وراعوا فيه طرائق مختلفة في بنية قوافيهم. **الفريق الثاني:** وهو الرأي السائد والغالب، ويؤكد أصحابه أنّ الرباعيات ظهرت أولاً في الشعر الفارسي، ثمّ انتشرت فيما بعد عند العرب. حيث يكاد المحدثون يجمعون على فارسية الدوبيت، فهذا (بَراؤن) يوشك أن يجعل من الرباعيات من أقدم ما صلنا من الشعر الفارسي. وفي هذا الشأن يشير شمس الدين قيس الرازي في معجمه (المعجم في معايير أشعار العجم) أنّ الشاعر الفارسي عبد الله بن جعفر بن محمد السمرقندي (ت 329هـ/940م) والمدعو بـ (الرودي) هو مكتشف وزن الدوبيت، حيث يعود اكتشافه لهذا الفنّ الشعري إلى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري.

ولعل أشهر من نظم في الرباعيات فضلاً عن (الرودي) شهيد البلخي (ت 325هـ/936م)، والدقيق الطوسي (ت 368هـ/978م)، وأبو سعيد ابن أبي الخير (ت 440هـ/1049م)؛ وغيرهم. أما أشهر من نظم الرباعيات فهو الشاعر والعلم والفيلسوف عمر الخيام²، ولقد ترجمت هذه الرباعيات عدّة مرات إلى اللغة العربية، ولعلّ أشهر ترجمة لها كانت مقبل الشاعر المصري المصري أحمد رامي.

ثالثاً: وزن الرباعيات:

يعاني هذا الفنّ كغيره من الفنون المستحدثة في الشعر العربي من إشكاليات في بناء وزنه، ونستثني من هذه الإشكاليات الرباعيات التي بنيت على الأوزان الخليلية، أمّا تلك التي خرجت عن هذا الأوزان فقد اختلف النقاد والعروضيون في تحديد أوزانها، ولعلّ الوزن المشهور للدوبيت

1 - التهانوي، مجد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ط1، بيروت: مكتبة لبنان، +1996، ص 842.
2 - وهو غِيَاثُ الدِّينِ أَبُو الفُتُوْحِ عَمْرُ بْنُ إِبرَاهِيمَ بْنِ صَالِحِ الحَيَّامِ النَّيسَابُورِيِّ والخِيَّامِ لقب والده الذي كان يصنع الخيام، هو عالم فلك ورياضيات وفيلسوف وشاعر فارسي مسلم، ويذهب بعضهم إلى أن أصوله عربية. وُلِدَ في مدينة نيسابور من خراسان ما بين (1038 و1048هـ)، وتوفي فيها ما بين (1123 و1124هـ)، وهو بعمر 83 عاماً، يعود إليه الفضل في اختراع طريقة حساب المثلثات وحل المعادلات الجبرية التي من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط وهو صاحب الرباعيات المشهورة.

الذي يكاد يتفق عليه أهل العروض هو: (فَعْلُنْ متفاعِلن فعولن فَعْلُنْ). وقد حدّد له شهاب المصري مفتاحه حيث قال:

دوبيت لنظّم فارس ميزان ما خصّصهم بكسبه الإمكان
فَعْلُنْ متفاعِلن فعولن فَعْلُنْ (بل ران على قوبهم ما كانوا)

أ- أنواعه:

جعلوا لهذا الوزن أنواعاً، منها التام والمجزوء³، وله من الأعاريض خمس ومن الأضرِب سبعة:

1- التام له عروضان وأربعة أضرِب:

الأولى صحيحة (فَعْلُنْ) ولها ضريان؛

الأول مثلها (فَعْلُنْ): إن جرت بحيّ ساكنين العلما من أجلهم حالي، كما قد علما

قل عبدكم ذاب اشتياقا لكم حتى لو مات من ضني ما علما

الثاني: مسبّغ (فَعْلَانْ): بالذل رفعت قصّة الهجر إليه والأرض لثمت خاضعا بين يديه

في الحال إلى حاجبيه وقع لي هذا الشاكي يزداد في الجوّ عليه

الثانية مضمرة (فَعْلُنْ) ولها ضريان؛

الأول مثلها مضمر (فَعْلُنْ)⁴: لا تحسب رورة الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السلوان

ما أرسلت الرقاد إلا شركاً تصطاد به شوارد الغزلان

الثاني مسبّغ (فَعْلَانْ): خلّ له حاجب جميل فتان قد جاد عليّ في أنيق البستان

أوقات وصالك الشهيّ شهد يا من سحر الوري جميعا والجان

2- المجزوء: له عروضان وضريان:

الأولى صحيحة (فعولن) ولها ضرب واحد مثلها:

يا من لعبت به شمول ما أطف هذه الشمائل

نشوان يهزه دلال كالغصن مع النسيم نائل

الثانية محذوفة (فعو = فعل) ولها ضرب واحد مثلها:

لله معاهد الحمى ما أحسنها مع الدمى

قد قدّ مهجتي الهوى حتى امتزج الدمع دما

ب- جوزاته:

ومما يطرأ على حشو هذه الأجزاء أنّ متفاعِلن، قد تُسكّنُ تاؤها بالإضمار، وقد يُزاد بعد عينها ياءً، فيستعملونها متفاعِلين، وقد يحذفون النون منها عند زيادة الياء⁵

رابعاً: لغة الرباعيات:

الأصل في الرباعيات أو الدوبيت أن يكون معرباً من حيث الألفاظ والتراكيب، ولكن ميل

الشعر بوجه عام إلى التأثر باللغة المحكية في أساليبها في العصور المتأخرة جعل اللحن والعامية

يدخلان إليه. وقد كثر الدوبيت الملحون حتى ليكاد يطغى من حيث الكم على الفصيح، ويعد

الدوبيت الصوفي هو أكثر الأنواع ميلاً إلى العامية واللحن.

³ - قد تأتي الرباعيات مشطورة أو منهوكة ولها عروض واحدة صحيحة (متفاعِلن) ولها ضرب واحد مثلها.

⁴ - البيتان لصفي الدين الحلي

⁵ - ابن أبي شنب: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، ص 114.

خامسا: أنواع الرباعيات:

بحسب مصطفى صادق الرافعي، فإن للرباعيات باعتبار القوافي خمسة أنواع:

1- الرباعي المعرج: ويشترط في قوافيه أن يكون بين الثلاثة منها أو [بين] أربعها الجناس التام،

كقول الشاعر: يا من بسنان رحمه قد طعنا والصارم من لحظة قطعنا

ارحم دنفا في سنه قد طعنا في حبك لا يصيبه قط عنا

2- الرباعي الخاص: ويشترط فيه أن تكون كل قافيتين متقابلتين بينهما جناس تام- ويقولون إن

مثاله: أهوى رشاً بلحظة كلمنا رمزا وبسيف لحظة كلمنا

لو كان من الغرام قد سلّمنا ما كان له بيده سلّمنا

3- الرباعي الممنطق: وهو ما يسميه بعضهم بالمرصع؛ وهو ما كان أشطره الأولى تامّة والشطر

الثاني عبارة عن فقرة تجيء على وزن (فعلن فعلن)، وقد يكون هذا النوع من الرباعيات

مصرعة جميع أشطره، كما قد يكون من النوع المخالف نحو قول الشاعر:

قد قد لهجتي غرام ونشر والقلب ملك

من كان يراك قال ما أنت بشر بل أنت ملك

4- الرباعي المرقّل: وهو الذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها

فقرتان، نحو قول الشاعر: بدر إذا رآته شمس الأفق كسفت ورقى في يوم أحد

عوّدت جماله برّب الفلق وبما خلقا من كل أحد

5- الرباعي المردوف: وهو الذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها

ثلاث فقرات تجيء على وزن (فعلن فعلن)، نحو قول الشاعر:

يا مرسلا للأنام جاها وحمى ها أنت لنا عزا وهدى في أيّ مدد

يا أفضل من مشى بأرض سما يا شافعنا في الحشر غدا غوثنا ومدد